

## الفصل الثالث

### الرحيل المبارك

○ الوفاة

○ الشاعر

## الوفاة

ورثى الشافعى خلق كثير يوم وفاته ، منهم تلميذه المزنى . وعاد المشيعون وقد رأوا هلال شعبان .

أقام الشافعى فى قبره مائتين وسبعين سنة هادئا مطمئنا ، وفى سنة ٤٧٤ هـ بنى الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فى بغداد ، وأراد أن ينقل رفات الشافعى لدفنه فى تلك المدرسة فأرسل بهدية عظيمة إلى أمير الجيوش «بدر الجمال» وزير الخليفة المستنصر الفاطمى فى مصر وطلب منه نقل الرفات ووافق الخليفة الفاطمى ، فلما علم أهل مصر بالخبر هاجوا وماجوا فرجع الأمر إلى الخليفة فأمر باستعمال القوة فأحضر الوزير العمال والفعلة وأمرهم بالحفر فحفروا حتى إذا ما وصلوا إلى اللحد خرجت من اللحد رائحة أسكرتهم ، فلما أفاقوا استغفروا ربهم فأمر الوزير بردم القبر كما كان فلما علم الناس بذلك وعلم نظام الملك فى العراق أعلم كل الناس بذلك وارتفعت منزلة الشافعى بين الناس واتبع مذهبه كثير من أهل تلك البلاد .

أما أهل مصر فلازموا زيارة قبر الشافعى أربعين يوما بلياليها ، وكان الزائر لا يصل إلى القبر إلا بشق الأنفس من كثرة الزحام .  
ومما قيل فى الشافعى رحمه الله بعد وفاته :

تسربل بالتقوى وليدا وناشئا      وخصّ بلب الكهل مذ هو يافع  
فآثاره فينا بدور زواهر      وأحكامه فينا نجوم طوالع

تعرض الشافعي في حياته لأمرّاض كثيرة من بينها «البواسير» الذي كان سببا في وفاته حيث نَزف كثيرا وأدى ذلك النزف إلى الوفاة. يُروى عن الربيع أنه دخل عليه قرب وفاته فقال له: كيف أصبحت؟ فأجاب الشافعي وقد أحس بدنو أجله:

أصبحتُ من الدنيا راحلا، وإخواني مفارقا، ولكأس المنية شاربا،  
ولسوء أعمالي ملاقيا، وعلى الكريم سبحانه واردا.. ثم أنشد:

فلما قسا قلبي وضّقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلما

وفاضت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية بين يدي تلميذه «الربيع الجيزي» وانتشر خبر وفاته في مصر فعم أهلها الحزن والأسى وخرج الناس من بيوتهم يريدون حمّله فوق أعناقهم وهم في اضطراب من شدة هول المصاب.

وأصبح يوم الجمعة «٣٠» رجب سنة «٢٠٤هـ» لا حديث للناس إلا طلب الرحمة والرضوان للراحل الكريم، وذهب أهله إلى الوالي وطلبوا منه الحضور لغسل الإمام— كما أوصى— فقال لهم: هل ترك الإمام ديننا؟ قالوا: نعم، فقضى الوالي دينه، ثم نظر إليهم وقال: هذا معنى غسلي له. وبعد صلاة العصر خرجت الجنازة من بيت الشافعي مخترقة الفسطاط وأسواقها حتى إذا وصلت إلى بيت السباع وهو شارع السيدة نفيسة الآن أدخل النعش إلى فناء دار السيدة نفيسة وصلت عليه صلاة الجنازة وقالت: رحم الله الشافعي إنه كان يحسن الوضوء. خرجت هذه الجملة من فم السيدة نفيسة وصلّت عليه صلاة الجنازة وقالت: رحم الله

الشافعي لتحل إشكالا كبيرا كان قائما بسبب الترتيب فى الوضوء بين أتباع الشافعى وأتباع غيره من الأئمة الآخرين.

## الشاعر

قد يكون عجباً للناس الذين لم يحيطوا بسيرة الشافعى علما أن يقال لهم إنه كان شاعرا، ولكن هذا هو الذى كان؛ فإن الشافعى كان شاعرا يجيد قول الشعر، وإن لم ينصرف إليه ولم يتوسع فيه إذ كان مُقلا عنه لا شغاله بالفقه والعلم.. وهذا هو «المُبرّد» يقول: «كان الشافعى من أشعر الناس وآدب الناس، وأعرفهم بالقراءات».

وحُق للشافعى العالم الفقيه أن يجيد قول الشعر الحسن بجوار علمه وفقهه، فقد بدأ أمره بطلب الشعر والأدب وأيام العرب وهو قد رحل إلى موطن قبيلة «هذيل» وأقام بينها زمنا طويلا يتلقى عن أبنائها اللغة ويحفظ منهم أشعارهم حتى صار حجة فى أشعار هذيل، يقول الأصمعى: صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعى.

كما قال الأصمعى كذلك: قرأت شعر الشنفرى على الشافعى بمكة!! وظل الشافعى يحفظ هذه الأشعار حتى بعد أن شغله الحديث والفقه ويردد هذه الأشعار بنجوة من الذين يضيقون بها.. فقد قال مصعب الزبيرى: كان أبى والشافعى يتناشدان فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظا، وقال: لا تعلم بهذا أحدا من أهل الحديث فإنهم لا يحتملون هذا! وحفظ الشعر خطوة واسعة نحو احتذائها فى نظم الشعر عند المستعد لنظمه فكيف بحافظها إذا كانت عنده الفطرة الشعرية أو الملكة الدافعة إلى قول الشعر؟

والشافعي كما يلوح لنا ذو فطرة وذو ملكة وذو استعداد وذو اقتدار على الانتفاع في صياغته الشعرية بالزاد الشعري الجليل الكبير الذي حفظه ووعاه..

كان الإمام إذا أنشد شعرا انتسب إليه السحر أصح انتساب، وتدققت على لسانه معجزات البلاغة، وانهمرت فيه الحكمة، وقد انسابت حلوة رقيقة عذبة، وانتشرت منها المعاني دررا، فسالت على يراعه<sup>(١)</sup> تتحاسد في التسابق إلى خواطره فإذا هي إكليل در ما لمنظومها سلك. وإذا بها ديوان نظم عقد البلاغة ومعسول العبارة وبديع الحكمة ورقة الموعظة.

إن شعر الشافعي كما قال: «لوددت أن الخلق تعلمه ولم ينسب إلى منه شيء أبدا، وما في قلبي من علم إلا وددت أنه عند كل أحد ولا ينسب إلى» فننوه هنا بأنه لا يصح لنا أن نجزم بصحة هذه القصائد كلها للشافعي.. ولكنه في النهاية فن وعلم وحكمة وتجارب وعظات بحلوها ومرها تضيء الأنوار على كثير من مشكلاتنا وأخص ما نعانيه ونتألم منه. وفيه البعد عن سقطات الشعراء وتبذلهم واستجدائهم ومجونهم..

وفيه الرحيل بالنفس الإنسانية إلى رحاب العلم والاتعاض بالأيام وتقلب وصورف الدهر ونوبه، والارتفاع بها إلى ذرا الأخلاق ومدارج الكمال.

لهذا رأيت أن أتناوله بالشرح من منظور أخلاقي حكيم ففيه الدرر والجواهر اللامعة المكنونة التي تحتاج لغواص ماهر مغامر لاستخراجها وإبرازها للنفوس الباحثة عن المعرفة المضيئة من الأيام في كل زمان ومكان!

---

(١) اليراع: القلم.